بين عامين

أنا ونفسي . . . !

للأستاذ علي الطنطاوي

. . . كنت نائماً ولكن قلبي لم ينم ، بل كان يقظان يهزني لأفيق ، ويغريني بشتى الألاعيب يلوح لي بها ، ملفوفة بثياب الأحلام زاهية وكابية ، سارة ومحزنة ... فلا أحفل بها ، فلما ضاق بي ذرعا ، وضمني على حافة الهاوية ، ودفعني . . . فأفقت فزعاً . . .

فاذا العام على وشك الرحيل !

* * *

نظرت من النافذة فاذا كل شيء أراه نائم ؛ هذه النخلة التي تقوم حيال شباكي ، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال ، ودجلة التي تجري صامتة مهيبة ، والقمر الذي يغسل ماءها بشعاعه ...

ما أقساه ! وما أقسى صيادة المكروب ! فهي قد تنزع من الباحث قلبه . وأخذ شيطان ريدَ الباحث يوسوس اليه : «ولكن أصادقة حقاً تلك النتائج التي أدّت اليها تجاربك» ؟ نعم إن الحمى لم تأت أيّا من هؤلاء الرجال الذين ناموا في هذا البيت ، ولكن ما أدرانا أنهم بطبيعتهم حصينون من الحمى ، فهي لا تأتيهم أبداً ؟ وكان ريد وكارول سألا فوك وجرنجان أمرا هو أقصى ما سأله ضابطٌ جنديا فأجاباهما اليه ، ومع هذا فقد قام الاثنان من جديد فحقنا جرنجان بدم وبيء أشدّ الوباء جاءا به من دم مريض ، وقرصوا فوك ببعوض كان قَرَصَ مرضى ماتوا من الداء . فأصيب جرنجان وفوك بآلام جسام . واحتقن وجهاهما ، واحمرت بالدم عيونهما ، ونزلا وادي الموت ولكنهما عبراه سالمين . فحمد ريد ربه ؛ حمده لخلاصهما ، ولكنه حمده على الأكثر لما تبيّن له أنهما لم يكونا حصينين من الحمى لما باتا في بيت الكرب عشرين ليلة

ووهبوا كلا من فوك وجرنجان عن صنيعهما ثلثمائة ريال ، وهو مبلغ لم يكن صغيراً في تلك الأيام

(يتبع) أحمد زكي

وإذا على الطريق شبح يسير منهوكا !

* * *

على الطريق الذي لا يمتد في سهل ولا وعر ، ولا يسير على سفح جبل ، ولا شاطىء بحر ، ولا يسلك الصحراء ، ولا يخترق البساتين ... ولكنه يلف السهل والوعر ، والجبل والبحر ، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه ، ومن يكون فيها ..

على الطريق الطويل الذي يلوح كخط أبيض ، يغيب أوله في ظلام الأزل ، ويختفي آخره في ضباب الأبد ..

رأيت شبحاً يسير على .. طريق « الزمان » !

* * *

وسمعت صائحاً يصيح بالطبيعة : أن تيقظي ، إن العام يرحل الآن !

ففتحت النخلة عينيها ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت عشرات مثله تأتي وتذهب ، فلم تبدل شيئاً . . الفأس لا تزال باقية ، وهذا الوحش البشري لا يزال ينتظر ثمري ليسلبنيه ؛ ثم إذا قنط مني كافأني بالفأس والنار ... فمالي وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها فنامت ، ولم تكترث !

ونظرت القبة ، فلما أبصرته قالت : قد رأيت مئات مثله تجيء وتروح ، لم تبدل شيئاً ؛ فهذا النخيل قائم حولي كما كان ، والشمس تطلع علي كل يوم وتغيب ، والنجوم تسطع فوق كل ليلة ، والأرض تنتظرني ، تريد أن أهرم فتجذب أحجاري إليها وتأكلني .. وكل شيء على حاله لم يتبدل إلا الانسان : كان الخليفة يمشي تحتي ، ويخطر بين أساطيني في حال المجد وأردية الجلال ؛ إن أمر أطاعت الدنيا ، وإن نادى لبى الدهر ، وإن مال مالت الأرض ؛ وكان الناس يطيفون بي أجلة أمجاداً ، عباداً أذلاء لله ، وملوكا أعزة على الناس .. فأصبحت وحيدة منعزلة ، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين تعروا من كل جاه إلا جاه العبادة ، ومجد إلا مجد الآخرة .. فمالي وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها ، وعادت تحلم ، ولم تكترث !

وتنبهت دجلة ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت ألوفا مثله تمر في هذه الطريق فلم تعمل في الكون شيئاً ، ولم تغير إلا الانسان ؛ كانت تقوم على شاطئي القصور الفخمة ، تتوج هامها العظمة ، ويحل أرجاءها الجلال ، ويمثل في أبهائها المجد ، ويقف على بابها التاريخ ، يصدر عنها ، ويكتب حديثها ، وتبثق

منها أشعة الحضارة والفن ، وتسطع منها أنوار العلم والأدب ، وتومض فى شرفاتها وأروقتها العمائم التى كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم .. فلم يبق من هذا كله إلا أطلال ، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها ويغطوا عليها بقبعة . . . ولكن ذلك لن يدوم ؛ إن طريق الزمن لا يزال مسلوكا . . . ثم صمتت وعادت تجرى كما كانت تجرى ولم تكترث !

وأنصت القمر وأطل ينظر ، فلما رأى العام الراحل قال : لقد رأيت ملايين مثله ، وقد مللت مر السنين وكرّ العصور ، فما لى وله ؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكترث !

وبقيت وحدى !

* * *

بقيت وحيداً .. فنظرت فى نفسى :

لقد صحبت سبعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان ... فهل اقتربت من آمالى ؟ هل دنوت من الغاية التى أسعى اليها فى سفرى ؟

ثم سألت نفسى : ما هى الغاية التى تسعين اليها ؟ أتسيرين الى غير ما نهاية ، كلما مرّ عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك الى وادى الموت ؟ ألا تعلمين الى أين المسير ؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هـذا السؤال ، فاضطربت اضطراباً شـديداً ، وكثرت فيها الآراء ، واشتد بين أعضائها الخلاف ، ثم انشقت انشقاقا ، وانقسمت أحزاباً ، وانثرت نفوساً

* * *

قالت النفس الأولى : الغاية يا صاحبى واضحـة ؛ إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذى نحمله ، نحيا لسدّ حاجاته ، وإجابة رغباته ، وإمتاعه بملذّاته

قالت الثانيـة : خسئت أيتها « النفس الفاجرة ! » إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبى ؛ إن الجسم ليس منا

قالت الأولى : أفهو إذن من غيرنا ؟ وقهقهت ضاحكة

قالت : اسخرى من نفسك ، إنه لو كان منّا ، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده ؛ إنه ثوب نلبسه ونخلعه ، أفيكون الثوب جزءا من اللابس ؟

قالت الأولى : إننى لم أفهم فلسفتك ، أتزعمين أن يدى ورجلى ليستا منى ؟

قالت : نعم إن المرء لو قطعت يده أو رجله ، أو ذهب سمعه أو بصره ، لا تنقص نفسـه شيئا ، بل لقد يكون الأعمى الأصمّ أكمل نفساً ، وأقوى عقلا ، وأسمى روحا ، من السميع البصير ؛ وإنك لتعلمين هذا ، ولـكنك « نفس سوء » تريدين الاستمتاع بشهواتك ، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات !

قالت الأولى : فلم إذن نحيا يأيتها « النفس المفكرة ؟ »

قالت : نحيا لنكشف خبايا الوجود ، لنستطلع طالع الـكائنات ، لنعرف نواميس الـكون وأسرار الطبيعة . . . من أجل هذا نحيا

* * *

فانبرت لها نفسى الثالثة . . . فقالت :

— كنت أظنك عاقلة تفهمين وتعرفين ، فاذا أنت جاهلة . ويحك ! ما نحن والوجود ؟ مالنا وللطبيعة ؟ ماذا يعنينا أكانت المجرّة نهراً فى السماء ، أم كانت مجموعة من الـكواكب ؟ وماذا ينفعنا أن يكون فى المريخ ناس ، أو يكون مقفراً لا ناس فيه ؟... مالنا ولهذا الفضول ؟

قالت الثانية : إنك « نفس شاعرة » تنكرين قيمة العلم

قالت : إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء ! إنك كنت ترين فى الـكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف ، فلما علمت أنه حادث طبيعى : كوكب يقوم بحذاء كوكب ، ضاع معناه ، وانتفت أسراره ، ولم يعد يثير فيـك عاطفة ، أو يهيج فيك حسا

قالت الثانية : وما قيمة العاطفة ؟ أتريدين أن ندع العلم من أجل عاطفة ؟

قالت الثالثـة : لا . بل تعلمى ، ولـكن تعلمى ما تحتاجين اليه ؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة ، ولـكن الشعور غذاء لا يستغنى عنه ، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ، ونتذوّقه فى الطبيعة وفى الانسان وفى الفن ... من أجل هذا نحيا

* * *

فوثبت النفس الرابعة « النفس المؤمنة المطمئنة » فقالت : ياللسخف !

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت : أى سخف ترين من فضلك ؟ إذا كنا لا نرى الجمال فلمَ نحيا ؟

قالت الرابعـة متهكمة : كأنك تحيين الآن ! إنك ياسيدتى سجينة فاسعى لتتخلصى من قيود السجن ، ثم انطلقى فى فضاء

الحرية ، فعيشي في الحياة الأخرى : حياة الانطلاق

ورأيت المنافشة قد طالت وغدت مملة ، وتشعبت فيها الآراء فأسكتهن ورجعت أفكّر وحدي

* * *

قلت : إنني لا أدري لماذا أحيا ؟ ولا أعرف ما هي صلتي بالكون !

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب ، وأشرف عليها من نافذة المدرسة ، فأراها صغيرة كقبضة الكف ، فحسبت أني إذا خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدي

وعشت بهذا الأمل ، فلم أعرف حقيقة الحياة ، ولم أعد لها العدّة ، ولم أجد من يخبرني خبرها إلا هؤلاء الأساتذة ، وهم قوم مخادعون ، لا يبصرون التلميذ بالدنيا كما هي في ذاتها ، بل كما يريدون هم أن تكون ...

وخرجت من المدرسة ، وهبطت من سماء الخيال إلى أرض الحقيقة ، فإذا الطريق مزروع بالشوك ؛ فانطلقت أمشي وأجاهد بهمّة الشاب القوي الطموح ، فما قطعت من الطريق إلا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكتفي وتستمسك بي ، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه وثبت فسبقتني اليه ، فسرت أجاهد وأتقدم أوّم منزلاً آخر ، حتى هدني التعب ، ونال مني النصب ، ولم أصل إلى شيء .

* * *

ولاح لي فجأة قصر عظيم على جانب الطريق ، تلمع قبابه المغشّاة بالذهب ، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة ، وتضيء نقوشه وزخارفه في شعاع الشمس ، ويقرأ على بابه بأحرف من النور : « هذا قصر اليأس » فراعني مظهره ، وهممت أن أحيد عن الطريق فأدخله ، ولكني نظرت اليه أولاً ، فإذا هو موحش مظلم في وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاعي ... وإذا هو خال من البشر ، ليس فيه إلا جماعة الشعراء الباكين ، يعدّون قصائدهم لتدفن معهم في هذا القبر الأسود فلا يدري بها أحد ...

فوليت هاربا ، وآثرت العودة الى مقارعة الشوك ، وجهاد الحياة

عدت فقارعت وجاهدت ، فلم أصل الى شيء ... فسألت نفسي : هل أيأس ؟

* * *

سألتها وحدثتها ، ولكني جهرت بالحديث ، فأيقظت النائمين ...

أطلت على النخلة ، فقالت : إلامَ تجاهد وتناضل ؟ ماذا تريد أيها الرجل ؟ ألا تقنع مثلي بأن تقف في مكانك حتى يأتيك الموت ؟

قلت : لا . إن لي غاية واحدة ، هي أن أبقى دائما أجاهد وأناضل !

فضحكت وقهقهت أوراقها ، وعادت الى منامها

ومدت القبة رأسها فقالت : ألا تنام مثلي أيها الفتى وتحلم ؟ لماذا تعدو في طريق القبر ؟ قلت : إني أحب أن أصل الى القبر لأني سأخرج منه الى الفضاء الواسع ؛ سأخلع فيه ثوبي الجثماني ثم أنطلق صُعُدا

فذهبت وهي تحدث نفسها : ينطلق صعداً ؟ أنا هنا منذ ألف ومائة سنة ولم انطلق صعداً ، ثم رجعت الى المنام

وقالت دجلة وقد صفّق لي ماؤها سروراً :

— امضِ أيها الغلام امض ؛ إن طريقك طويل ، ولكنك قويّ ؛ إنك لا تمشي الى القبر لتفنى ، ولكن تدخل من باب القبر الى عالم الخلود ، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف سنة ، ولكنك قد ولدت بعقلك قبلي ، وستعيش بروحك من بعدي ... انطلق ... انطلق الى حياة الخلود ؛ إنك ستبقى بعد أن تموت الجبال ، وتغرق البحار ، ويختنق الهواء ... وتدفن الصحراء !

وأمّن القمر على كلامها ، وأطلّ عليّ من النافذة فصافحني بشعاعه وقال !

لقد صدقت ! إنك تعيش الآن لتعد العدّة للحياة ... إنك ستحيا حقاً حين تنطلق من قيود الجسم

ثم صمت ... وصمت !

* * *

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة ... فصحت به :

أنا الذي يهتم بك أيها العام ... أنا الذي يودعك ويستقبل غيرك ، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر ... تلك للفناء ، وأنا للبقاء ... تلك تنتظر الموت ، وأنا أنتظر الحياة ... أنا أمشي على هام السنين الى الحياة الأخرى !

(بغداد) علي الطنطاوي